# من مظاهر الزي في المغرب الوسيط
# أغطية الرأس ودلالاتها السوسيوثقافية

الحسين فقادي*

بعدما كان اهتمام المؤرخين منصبا على تاريخ المغرب السياسي والعسكري، ظهر توجه جديد اعتنى بدراسة مختلف أنحاء تاريخنا الحضاري، ومع ذلك فإن جوانب متعددة منه، لم تحظ بنصيب من العناية، كتاريخ الزي الذي لم تنجز عنه بعد دراسات تاريخية قيمة(1).

إذا كان اللباس قد وجد كضرورة لحماية جسم الإنسان من تقلبات الظروف المناخية، فإنه يجسد في الوقت ذاته دلالات متعددة كالحشمة والتأنق والانتماء السوسيو مهني... وسنسعى في هذه المقالة إلى ملامسة بعض مظاهر اللباس المدني في المغرب الوسيط، مركزين على بعض أغطية الرأس لاسيما الرجالية مشيرين من حين إلى آخر إلى دلالاتها السوسيوثقافية.

أول ما يتبادر إلى الذهن، هل كان أهل المغرب يستعملون أغطية للرأس أم كانوا يمشون ورؤوسهم حاسرة ؟

إن مصادر تاريخ القرون الإسلامية الأولى التي تلت قدوم العرب إلى المغرب كغزاة مجاهدين لا تسعفنا، لاقتصارها على الفتوح والأنساب. بيد أن بعض مصادر التاريخ القديم(2) تشير إلى أن سكان المغرب اهتموا بتضفير الشعر

---

* – باحث من الدار البيضاء

وبالتصـــفيف الجمـــيل له، مما يدل على أنهم كانوا لا يغطون رؤوسهم. ويؤيد هذا الـــرأي المـــؤرخ شارل أندري جوليانCh.A. Julien (3) الذي أكد أن سكان المغرب الأولون كانوا يمشون ورؤوسهم عارية. كما ذكر أحد الدارسين(4) للحياة اليومية في شـــمال إفريقـــيا خلال القرن الخامس الميلادي، أن الإنسان في المدينة والبادية كان يمشي ورأسه مكشوفة.

لكن ماذا عن أنسان العصر الوسيط ؟

فـــي النصـــف الثاني من القرن 5هـــ /11 م، رسم لنا أبوعبيد البكري(5) صورة عن مصـــامدة بـــلاد غمارة وهم يسدلون شعورهم ويضفرونها كالنساء، ثم يتعممون بها نفهـــم مـــن خلالهـــا أن غمارة بشمال المغرب كانوا لا يغطون رؤوسهم، بل يلفون حولهـــا ضـــفائرهم الطويلـــة. وفي نفس السياق ذكر الشريف الإدريسي(6) أن زي مصـــامدة بـــلاد ســـوس، لـــباس الأكســـية التفافا، وعلى رؤوسهم الشعور الكثيرة يخضـــبونها كـــل جمعـــة بالحناء، ويغسلونها بعناية، فهم بذلك يشبهون إلى حد ما إخوانهـــم فـــي الشـــمال أي يربون الشعور الكثيرة دون أن يضعوا على رؤوسهم أغطية(7). كما أشار البكري في معرض حديثه عن البرغواطيين إلى أن عبد الله أبي الأنصـــار الذي تولى حكم دولتهم سنة 300هـــ كان "لايعتم إلا في الحرب ولا يعتم أحـــد فـــي بلده إلا الغرباء"(8). تفيد رواية هذا الجغرافي الذي عاصر أواخر الدولة البرغواطية أن ملكها لا يغطي رأسه إلا إذا أجبرته الحرب على ذلك، وأن أهل البلد الممـــتد بين جنوب نهر سبو وأم الربيع لا يعتمرون(9). وينبغي أن نشير إلى أن ثمة تطـــابق بين نصوص إغريقية وعربية(10) حول انتشار عادة تربية الشعور وضفرها بين سكان المغرب. والتي أرجعها بعض المؤرخين أمثال ناحوم سلوش Slouch في مقاله عن امبراطورية برغواطة، ودفردان Gaston Deverdun في كتابه عن مراكش إلى المؤثرات اليهودية(11). لكن لابد من التعامل مع هذا التفسير بعقلية نقدية.

كما تجدر الإشارة إلى أن أهل غمارة وبرغواطة وسوس ينتمون عامة إلى مجموعـــة مصـــمودة الأمازيغية، التي استقرت في معظم المناطق الجبلية والسهول

الأطلنتية، وإذا صحت تلك الروايات عن هؤلاء المصامدة الذين كانوا يمشون ورؤوسهم مكشوفة واعتبرنا أن المغرب الأقصى "هو في الأغلب ديار المصامدة"(12). نخلص إلى أن عدم استعمال الأغطية الخاصة بالرأس كان هو السائد. ولعل هذا ما ذهب إليه ابن خلدون عندما سجل أثناء وصفه لزي الأمازيغ أن " رؤوسهم في الغالب حاسرة"(13). ومع ذلك يمكن أن نتساءل، ألم يكن بين مصامدة السهول والجبال من كان يستعمل غطاء الرأس ؟

أورد ابن الزيات تراجم مصامدة(14) تزيوا في مواطنهم بالشاشية والقلنسوة. وكان أصحاب المهن من مصامدة البوادي في مدينة مراكش يضعون على رؤوسهم قلنسوات عزف(15). وأشار إخباريون(16) إلى أن محمد بن تومرت زعيم الموحدين كان يغطي رأسه بكرزية(17) لا نعرف إن كان هذا المصمودي قد رحل في مستهل القرن 6هـ / 12م عن قريته الجبلية طالبا للعلم ورأسه حاسرة، ثم إنه تزي في المشرق العربي بالكرزية قبل أن يعود إلى موطنه بحرا متفجرا من العلم ؟ أو بالأحرى ألا يكتسي استعمال مهدي المصامدة العمامة، أكثر من دلالة سوسيوثقافية ؟ لاسيما أنه رفع نسبه إلى أصل عربي، والعمائم كما قال عمر بن الخطاب تيجان، العرب، وهي عادة من عاداتهم(18) ثم إن اسمه ونسبه اسم ونسب النبي [ص](19) وهو الذي قلد السيرة النبوية بكيفية واعية(20) فالنبي [ص] دخل مكة يوم الفتح وهو معتم بعمامة(21)، لكن لا يمكن الجزم بشيء ما دامت مصادرنا الضنينة لا تسمح بالإمساك بمثل هذه التفاصيل. أما خلفه عبد المومن الكومي مؤسس الإمبراطورية الموحدية، فلا جرم أنه التزم بالتعاليم "التومرتية"، كما أنه استعمل عمامة صوف(22). لكن نقرأ لدى ابن القطان نقلا عن صاحب "المن بالإمامة" أن الخليفة " ما لبس قط إلا ثياب الصوف عن قميص وعن سراويل وعن جبة تواضعا لله تعالى وزهدا"(23). ومما يثير الانتباه هنا أن زيه هذا تنقصه الكرزية. فهل تم إغفال ذكرها حتى يكون ثمة ترابط منطقي في سياق الكلام؟ خاصة أن الرأس الحاسرة دلالة على التواضع والزهد، أليست تغطية الرأس بأي

غطـــاء كـــأن، من الأعمال المحضورة في مناسك الحج الذي تقوم الحكمة فيه على التواضع وطهارة النفس ؟

وعـــن عهد خلفه أبي يعقوب وافانا ابن صاحب الصلاة بوصف موسع عن احـــتفالات الدولـــة الموحدية بمراكش (561هـــ / 1166م)، حيث أنعم الخليفة على الموحدين وعرب بني هلال الوافدين من إفريقية "بالكسوة التامة من العمائم والغفاير والـــبرانس والأكســـية ... وأنعـــم على جميع الناس الغازين والقاطنين بذلك، وعلى طلـــبة الحضـــر ..."(24) فصـــلات الخلـــيفة شملت إذن عددا كبيرا من العمائم التي تقتضيها الكسوة لتكون تامة، ثم إنها لم تقتصر "على أشياخ الأعراب وفرسانهم، وهم الذين اعتادوا التزيي بها، بل عمت أشياخ الموحدين وطلبتهم وغيرهم من المصامدة ومـــن الملاحظ أن الذين تنعموا بضروب الإنعامات الخليفية، كان معظمهم من علية القـــوم كالأشـــياخ ... أو أطـــر الدولـــة كالطلـــبة و غـــيرهم، باختصار ما يعرف بـــــ"الخاصـــة" أما جماهير "العامة" التي تشتد الخصاصة بمعوزيها، فقد عاين ابن صاحب الصلاة(25) كيف أن الواحد منهم ليشارك في عملية التميز، كان يضطر إلى إعارة ثياب صاحبه وعمامته، وذلك أمام سخرية الحاضرين. فلا غرابة إذن إذا كان مـــثل هـــذا العـــوز من بين الأسباب التي أدت إلى اعمال العنف و"اختطاف الثياب واستلاب الجلباب"(26). مما أثار حفيظة الخليفة أبي يعقوب.

باختصـــار يمكن أن نستنتج مما سلف ذكره أن نسبة المتعممين بدأت تتكاثر نســـبيا بين هؤلاء الأمازيغ. والغالب على الظن أن المجتمع المصمودي بدأ يعرف تحـــولات اجتماعـــية مـــنذ أواخر القرن 6هـــ وبداية القرن 7 هـــ خاصة مع توافد المجموعات العربية المعروفة بأعراب بني هلال وبني معقل الذين زاحموا بالمناكب قـــبائل مصمودة بين سلا ومراكش وفي سوس. بل وشاركوا في الصراعات الدائرة على السلطة خلال مرحلة ضعف الدولة الموحدية، فعلى سبيل المثال تحالف أعراب الخلـــط مع مصامدة هسكورة ضد الخليفة الرشيد حوالي 632هـــ ، فحالفهم زعيمهم ابن وقاريط الهسكوري "على أنه واحد منهم لا يخالفهم ولا يفارقهم"(27). فكان يطلق

ذؤابـــة مـــن عمامـــته، وطرفها مع ركبته وهو مزهو بنفسه(28). ألا يقتضي اندماج المرء في جماعة ما تبني شاراتها وعلامات تميزها ؟

لاشـــك أن الوجـــود الهلالي بصفة خاصة قد أحدث تأثيرا في حياة نسبة كبيرة من المصـــامدة، وحســـبنا هـــنا مـــا ذهب إليه ابن خلدون بخصوص شأن المغلوب في الاقـــتداء بغالبه، حيث لما تغلب الأعراب من هلال وسليم على سائر مناطق إفريقية الصـــنهاجية ســـادت "شارتهم في اللبوس والزي والطعون وسائر العوائد"(29). فمن غير المستبعد أن يكون لتأثير الأعراب النازحين نصيب كبير في تزايد الإقبال على اغطـــية الرأس لاسيما العمائم. ومما لاشك فيه أن مثل هذا التحول كان بطيئا، بدأ بقلـــة مـــنذ العهـــد الموحـــدي ثـــم تكاثر على امتداد العهود اللاحقة، وشمل على الخصـــوص الشرائح العليا من المجتمع، فقد كان عمال الموحدين يتعممون بعمامة بيضاء(30). وثمة ما يدل على انتشار هذه العادة في الزي على نطاق واسع في عهد المرينييـــن الذين ينتمون إلى مجموعة زناتة، فقد سبق لابن خلدون أن لاحظ وجود وجـــه الشـــبه بيـــنهم وبيـــن العـــرب من الناحية الاجتماعية(31) فلا غرو إذا كانوا يـــتعممون، فقـــبائل مكناسة كانوا يلبسون الأكسية والكرازي(32). وكان زي السلطان والأشـــياخ وعامـــة الجند عمائم طوال رقاق من الكتان(33) أما عامة الناس فعمائمهم خضـــر(34)، وامتدت بلاشك عادة تغطية الرأس إلى مناطق كثيرة من بلاد المصامدة التـــي عرفـــت تغيـــيرا في تركيبتها الديمغرافية، خصوصا بعد نزوح زناتة وعرب المعقـــل نحـــو السهول واحتكاكهم بقبائل هذه المناطق. ذكر الوزان(35) أثناء وصفه لـــزي سكان حاحا أنهم يفتلون قطعة طويلة من نسيج الصوف المصبوغ ويديرونها على رؤوسهم، فيبقى أعلى الرأس مكشوفا. ترى هل يعد هذا الشكل في تغطية الـــرأس توفـــيقا بيـــن الأصـــل والتقليد ؟ أما شيوخهم وفقهاؤهم فكانوا يستعملون القلانـــس(36). ولا يخـــتلف لـــباس معظـــم سكان مدينة تيوت في سوس عن لباس الحاحييـــن، وإن كان بعضهم يستعمل عمائم من كتان(37) أما سكان بعض الجبال فقد

تعـودوا أن يضعوا على رؤوسهم قلنسوات بيضاء(38) في حين كان جبليون آخرون يتركون رؤوسهم عارية في جميع الفصول(39).

أمـا عـن مـناطق الـريف حيث سبقت الإشارة إلى الصورة التي رسمها الـبكري في القرن 5 الهجري عن رجال غمارة الذين كانوا يسدلون شعورهم على شـكل ظفائـر. فقد لاحظ صاحب "الاستبصار"(40) في أواخر القرن 6 الهجري أن هـؤلاء المصامدة كانوا يربون شعورا طويلة فيما سلف، وعندما توغل الإسلام في بلادهـم حلقـوا رؤوسهم فورث ذلك الأبناء عن الآباء. لكن المؤلف مع الأسف لم يذكـر إن كانوا يغطون رؤوسهم أم كانوا يمشون حاسرين. بيد أننا نجد مؤلفا آخر عاصـر أحـداث نهاية الدولة الموحدية وقيام الدولة المرينية في النصف الثاني من القرن 7 الهجري يذكر أن لباس العامة في الريف كان يشمل جلموسا غليظا يوضع على الرأس(41). ووصف الوزان(42) ملابس سكان الريف بالرديئة، حيث يلبس الناس عـباءة قصـيرة مـن الصـوف مخططة بالأسود والأبيض، ولهذا اللباس قلنسوة يضعونها على رؤوسهم.

أمـا عـن سكان المدن فقد استعملوا أغطية للرأس كأعيان فاس الذين كانوا يضـعون على رؤوسهم قلنسوات ويلفون حولها عمائم من كتان تدور مرتين حول الـرأس وتمر تحت الذقن، في حين لا تضع عامة الناس على الرأس سوى طاقيات لا قيمة لها(43).

بعـد كـل هذا نخلص إلى أن ثمة دلائل تؤكد أن أهل المغرب، بعدما كان معظمهم حاسرا، بدأوا يستعملون – تدريجيا – أغطية الرأس ، لاسيما العمائم. لكن لابـد مـن التساؤل بخصوص لبسهم للبرانيس، فهل كان برنوسهم في البداية بدون غطـاء ملتزق به، وذلك على شكل المعطاف الروماني Cucullus romain ، ثم عندما شاعت تغطية الرأس أصبح لباسا رأسه منه ملتزق ويصلح للتغطية ؟ لايمكن الجزم أمام شح المصادر المكتوبة وغياب المعلومات الأيكونوغرافية(44).

إن تأثير أهل المغرب قد امتد إلى الأندلسيين الذين مالوا إلى العمامة، بعدما كان يغلب على زيهم ترك العمائم خاصة في شرق البلاد(45). فقد تأصلت عادة تغطية الرأس خصوصا بالعمائم في الغرب الاسلامي. وهكذا بعد ان كانت مظهرا من مظاهر زي العرب، وعادة من عاداتهم ، أصبحت مرتبطة بزي جميع المسلمين.

إن يهود المغرب الذين اعتنقوا الإسلام رسميا استعملوا العمامة، لكن عندما اشتبه في أنهم يمارسون عقيدتهم الأصلية في الخفاء، تميزوا بزي خاص، وذلك عندما أمر أبو يوسف الموحدي أن يضعوا على رؤوسهم بدل العمائم كلوتات(46). ونظرا لبشاعة هيئة الزي الذي شاع في جميع يهود البلاد وما كان يثيره من استهزاء، توسلوا بكل وسيلة إلى ابنه أبي عبد الله فأمرهم بلبس عمائم صفر(47). وفي عهد أبي سعيد عثمان المديني تعمموا بعمائم سود(48). إن عادة تغطية الرأس قد تجذرت في سلوك الفرد وبالتالي في السلوك الجمعي المتوارث، حتى أصبح كشف الرأس أمام الملأ وعدم تغطيته بأي غطاء، بدعة في الدين، مع أن الأمر ليس كذلك (49) وقد تكتسي المسألة أبعادا نفسية. فالرأس الحاسرة تفقد الرجل مروءته(50) وربما لهذا السبب كانوا يخرجون المنكل بهم ورؤوسهم عارية. فبعد أن قلد أبو جعفر بن عطية أعلى درجات الجاه والنفوذ في عهد عبد المومن الموحدي، قيد أثناء نكبته إلى المسجد حاسرا العمامة(51). وكذلك بعد أن تخلص أبو يوسف يعقوب المنصور من أخيه أبي يحي أمر بإخراج قرابته على أسوء حال حفاة عراة الرؤوس(52) واستمرت عقوبة الرأس العارية أمام الملأ إلى عهد قريب(53)، حيث كان ذلك يسقط عن المنكل به خصائص الرجولة(54).

ما يمكن إضافته إلى هذه الملامح العامة لأغطية الرأس لدى أهل المغرب في العصر الوسيط هو أن ثمة هيئة زي شادة عن المألوف، تميزت به قبائل صنهاجة اللثام الأمازيغية عن باقي شرائح المجتمع، واسترعت انتباه المؤرخين القدماء والمحدثين، فما هي تعليلاتهم لهذه العادة ؟ وما هي الدلالات التي تجسدها هذه الهيئة في الزي ؟

لقد ذكر الإدريسي أنهم يربطون على رؤوسهم الكرازي(55). شأنهم في ذلك شأن العرب، لا غرو فظروف بيئتهم الصحراوية وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية متشابهة بل أجمع أكثر نسابة العرب وعاضدهم ابن خلدون على أن صنهاجة تنتسب إلى العرب(56). مهما يكن، فإن هؤلاء الرحل تميزوا عن سائر العرب والأمازيغ باستعمال اللثام والنقاب. قال عنهم ابن حوقل(57):"ولم ير لأحدهم ولا لصنهاجة مذ كانت من وجوههم غير عيونهم، وذلك أنهم يتمثلون وهم أطفال وينشؤون على ذلك..." وأضاف البكري(58) أن "جميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه". يتبين من كل هذا أن هؤلاء الظواعن الأشداء كانوا يستعملون اللثام منذ طفولتهم، فشبوا ثم شاخوا على هذه العادة المتميزة بوضع النقاب فوق اللثام(59). وإذا تخطينا الزمان إلى حدود القرن الهجري العاشر نجد ما يثبت أن صنهاجة وغيرها من قبائل الصحراء ظلوا يستعملون لثاما أسودا ولا ينزعونه أبدا(60).

اختلفت تعليلات المؤرخين قديما وحديثا حول هذه العادة في الزي، حيث أورد بعضهم(61) روايات حول سبب استعمال صنهاجة اللثام، تمحورت حول حكايات التمويه على العدو ثم صار سنة لا يفارقونها على أية حال. وتكمن ناحية الضعف في هذه الروايات التي أثبتها هؤلاء المؤرخين على علاتها، في كونها تتسم بطابع قصصي وبعيدة عن الواقعة التاريخية. قد يرتبط اللثام بالتمويه، وقد يصبح عادة إذا اعتبرنا أن هؤلاء الجائلين في القفار وأطراف الرمال، في شظف من العيش، تتأثر طباعهم وأنماط سلوكهم بهذه الظروف المعيشية القاسية، فيمدون أيديهم وهم ملثمين لانتهاب ما في أيدي الناس أي "أن رزقهم في ضلال رماحهم". شأن العرب ومن في معناهم على حد تعبير صاحب "المقدمة". لكن مثل هذا التقدير وإن كان يبدو أكثر معقولية فإنه لا سبيل إلى إثباته بالأدلة من خلال المصادر المتاحة.

ونسوق تعليلا آخر أورده الرحالة ابن حوقل(62) عن هؤلاء البدو الصحراويين الذين استعملوا اللثام لزعمهم أن الفم سوءة تستوجب الغطاء مثل

العـــورة، لأن مـــا يفـــوح منه عندهم أخبث مما تستخرجه هذه الأخيرة. ولعل لهذا السبب كانوا يسمون من خالف زيهم هذا، أفواه الذبان(63). وتؤكد هذه الاسبوبة مدى احـــتقارهم للذين لا يتلثمون، وبالمقابل كانوا بدورهم عرضة للسخرية بسبب عادتهم هذه. نقل لنا النويري(64) نصا طريفا عن شيخ من الملثمين، قد انزوى في ضفة نهر وتجرد من جميع ثيابه البالية ثم قعد يغسلها بيد ويستر وجهه بالأخرى تاركا عورته مكشوفة لاشك أن هذه الأحدوثة مختلقة، وقد تكون من تشنيع الخصوم، بيد أنها تقر بأن الوجه دون لثام بمثابة عورة عندهم، حتى إنهم لا يأكلون ولا يشربون مع الأهل إلا مـــن تحت اللثام(65) واستمرت هذه العادة خلال الفترة المدروسة منذ القرن الرابع – حســـب أقدم شهادة وصلتنا عنها – إلى القرن العاشر الهجريين حيث عاين مؤلف مـــتأخر هـــو الحســـن الـــوزان، كيف أن صنهاجة وغيرها من الرحل الظاعنة في الصـــحراء لا ينزعون اللثام، وإذا أقدموا على الأكل كشفوا عن أفواههم ثم غطوها فـــي الحيـــن، معلليـــن ذلـــك بقولهم :"إن المرء يخجل لإدخال الطعام خجله من إخـــراجه"(66) والجدير بالملاحظة هنا، أنه لا يمكن لذالك التعليل – الذي جاء به ابن حوقـــل وأشـــار إليه النويري ثم أكده من بعدهما بقرون الحسن الوزان – أن يكون متماســـكا إلا إذا ثم اعتبار نساء صنهاجة في عداد من يتلثم أيضا، وذلك على عكس مـــا يـــردده المؤرخون القدماء والمحدثين عن سفور المرأة الصنهاجية، حتى أنه قد يـــتعذر على الواحد أن يشك في صحة ذلك ! بيد أن ثمة شهادة سجلها الوزان عن ولاتـــة وهم فرع من قبيلة مسوفة الصنهاجية، ومفادها أن من عادة نسائهم ورجالهم أن يتلثموا أو يغطوا وجوههم(67).

وقـــد ســـبق لابـــن بطوطة أن لاحظ أن نساء مدينة ولاتة لا يحتجبن رغم التزامهـــن بالصـــلاة(68). مما يدعو إلى التساؤل هل العادات على نمط واحد في كل أرجـــاء الصحراء الصنهاجية ؟ أم أن ثمة اختلاف في أخلاق وعوائد الصنهاجيين من أهل القفار والنجعة، وأهل المدن على قلتها ؟

إن الاختلاف بين الأمم والأجناس يكمن بلا شك في مستواها الحضاري لا بأصولها العرقية، بل بسبب الشروط المادية لحياتهم، هذه الشروط التي تحددها طبيعة المناخ والأرض، والتي تساهم بدورها في تحديد نوع العادات السائدة كما ألح على ذلك ابن خلدون(69). وسنعود إلى مناقشة هذه المسألة بشيء من التوسع في مناسبة لاحقة وكل ما نخلص إليه جزئيا الآن، أنه لا ينبغي تعميم الأحكام على سفور المرأة الصنهاجية ، لأنه لا يمكن إنكار حقيقة وجود نسوة استعملن اللثام، كما لا يجب استبعاد وجود نسوان سافرات.

إلى جانب تعليل انتشار ظاهرة اللثام بالحشمة، كما جاء في النصوص الآنفة الذكر، فهناك وجهة نظر أخرى تفسر استعمال الصحراويين للثام والنقاب بالشروط المناخية السائدة في البيئة الصحراوية.

أشار عدد من المؤرخين(70) إلى أن صنهاجة الصحراء يتلثمون لشدة الحر والبرد والزوابع الرملية، وذلك على عادة العرب في البرية، وهي عادة حتمها الواقع الجغرافي الصحراوي، بيد أن ثمة من ينتقد(71) تفسيرها بعوامل المناخ، وحجته في ذلك أن المرابطين عندما بسطوا نفوذهم على المغرب والأندلس حيث الظروف المناخية مختلفة ظلوا متمسكين باستعمال اللثام الذي أصبح دالا على الفئة الحاكمة.

فالمرابطون كما ذكر ابن خلدون(72) اتخذوا اللثام ليتميزوا بشعاره بين الأمم. وجاء في كتاب "الكامل في التاريخ"(73) أنهم " لما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام". فهل يقصد ابن الأثير بتضييق اللثام إضافة النقاب فوق اللثام حتى لا يبدو من الوجه غير محاجر العينين، كما جاء في نص البكري السالف الذكر ؟ المهم أن اللثام أو النقاب يعد هيئة من هيئات الزي، له دلالات سوسيوثقافية، و يدل على مستوى مركزهم السياسي. فأقدموا على منع أهل الأندلس من وضع اللثام باعتباره علامة الأرستقراطية المحاربة(74).

وإذا كان الفقهاء قد أصدروا فتاوي تقر بأن عادة المرابطين في التلثم حميدة ويستحب لهم التزامها(75) فإن خصومهم قد وجدوا في هذه العادة غير المألوفة لدى

باقـــي شـــرائح المجتمع، مرتعا لدعايتهم السياسية، لاسيما حملة المهدي بن تومرت الذي انتقد بشدة زيهم هذا مشبها إياهم بالجواري والنساء(76).

أخـــيرا ولـــيس آخـــرا أن كل ما يمكن أن نستنتجه من خلال تضارب آراء المؤرخيـــن حول عادة اللثام هذه، هو أنها كانت حصيلة تفاعل الشروط البيومناخية الصـــحراوية بالظروف السوسيوثقافية الصنهاجية. ومقارنة مع صنهاجة الشمال في طنجة والأطلس المتوسط وأزمور وغيرها، لم نعثر على ما يفيد أنهم استعملوا اللثام أو الـــنقاب، ممـــا يدل على أن التمايز بين مختلف مكونات عناصر سكان البلاد، لا يعـــزى إلـــى أصولها الأنتو-قبلية بل إلى الظروف المادية لأنماط العيش التي تفرز العوائد السائدة في الزي وغيره.

والـــذي يمكن أن نختم به موضوع أغطية الرأس التي شاع استعمالها مـــن لـــدن المغاربـــة عـــبر مخـــتلف فترات العصر الوسيط، أنها تمثلت على الخصـــوص في العمائم والقلنسوات أو الطاقيات، وأنها لم تقتصر على حماية الـــرأس والتأنق أو التمايز،، بل أصبحت في حد ذاتها حاملة لرسالة message شـــأنها في ذلك شأن مختلف أشكال الزي كما أقر بذلك رواد سيميائية اللباس La Sémiologie du vêtement (77).

## الهوامش:

1 ــ حول تاريخ الزي في المغرب الوسيط يمكن الرجوع إلى ما سجلناه من ملاحظات أولية في مجلة أمل عدد 22 – 23/ 2001 ، ص. 253.

2 ــ المغرب الأقصى عند الإغريق واللاتين القرن 6 ق.م، القرن 7م ترجمة وتعليق المصطفى مولاي رشيد ، الدار البيضاء ، 1993 ، ص.32.

3 ــ Charles André Julien, "Histoire de l'Afrique du Nord", Paris, 1980, p.5.

4 ــ A.G. Hamman, « La Vie Quotidienne en Afrique du Nord au temps de Saint Augustin Hachette, 1979, p.68

5 ــ البكري، "المغرب في ذكر بلاد إفريقة والمغرب"، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة، ص.102.

6 ــ الشريف الإدريسي، "المغرب العربي" من كتاب نزهة المشتاق، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، بلجيكا، 1983 ، ص. 78.

7 ــ عكس ذلك ما خلص إليه ذ. إبراهيم القادري بوتشيش في "المغرب والأندلس في عصر المرابطين"، بيروت، 1993 ، ص. 84.

8 ــ البكري، م.س. ، ص. 137.

9 ــ العمرة أو العمار كل شيء يجعل على الرأس من عمامة أو قلنسوة ... ومنه قيل للمعتم معتمر. أنظر ابن سيدة "المخصص"، المجلد الأول السفر الرابع، بيروت، ب.ت. ، ص. 82.

10 ــ راجع الإحالة رقم 2 – 5 – 6.

11 ــ أحمد مختار العبادي، "في تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ، 1986، ص.302.

12 ــ أحمد الناصري، "الاستقصا"، الجزء الأول، البيضاء، 1954، ص. 71.

13 ــ ابن خلدون،"كتاب العبر..." ، المجلد 6 ، بيروت، 1992 ، ص. 104.

14 ــ ابن الزيات، "التشوف إلى رجال التصوف"، تحقيق ذ. أحمد التوفيق، الرباط، 1997 ، ص ص. 216 ، 356 ، 391.

15 ــ ابـــن عـــبد الملك المراكشي، "الذيل والتكملة" ، السفر الثامن، القسم الأول، تحقيق ذ. محمد بن شريفة، الرباط، 1984 ، ص. 249.

16 ــ البيدق، "أخبار المهدي بن تومرت" ، الرباط ، 1971 ، ص.41.

17 ــ الكرزية عمامة من صوف يرى البعض أن أصل الكلمة أمازيغي من فعل "كرس" أي ربط. أنظر:
Emile LAOUST, Mots et Choses Berbères, société Marocaine d'édition, 1920p130
الملاحظ أن العمامة يطلق عليها في بعض المناطق "الشد" وواضح هنا أن أصل الكلمة من فعل شد، وشد الشيء أي عقده وأوثقه.

18 ــ الجاحظ ، "البيان والتبيين"، الجزء 3 ، تحقيق ذ. عبد السلام هارون، القاهرة، 1985 ، ص.100.

19 ــ ابن القطان ، "نظم الجمان"، تحقيق ذ. محمود علي مكي، بيروت، 1990، ص.73.

20 ــ عبد الله العروي، " مجمل تاريخ المغرب" ، الجزء الثاني، البيضاء، 1994 ، ص. 142.

21 ــ TABARI, « Mohamed Sceau des prophètes » traduit par H. Zotenberg, Paris, 1980, p. 282.

22 ــ ابن عذاري ، "البيان المغرب"، قسم الموحدين، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985 ، ص.44.

23 ــ ابن القطان، م.س. ، ص.172.

24 ــ ابن صاحب الصلاة، "المن بالإمامة"، تحقيق ذ. عبد الهادي التازي، بيروت، 1987 ، ص.215.

25 ــ نفسه، ص. 347.

26 ــ نفسه، ص. 345.

27 ــ ابن عذاري، م.س. ، ص. 330.

28 ــ نفسه، ص. 328.

29 ــ ابن خلدون، م.س. ، ص. 337.

30 ــ عبد الحق البادسي،"المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف"، تحقيق سعيد أعراب ، الرباط ، 1993 ، ص. 72.

31 ــ إبراهيم حركات، "المغرب عبر التاريخ"، الجزء I ، البيضاء، 1984 ، ص.25.

32 ــ الإدريسي، م.س. ، ص.98.

33 ــ ابــن فضل الله العمري، من كتاب "مسالك الأبصار في ممالك المصار"، تحقيق ذ. مصطفى أبو ضيف أحمد ، البيضاء، 1988 ، ص.41.

34 ــ نفسه، ص. 142.

35 ــ الحسن الوزان، "وصف إفريقيا" ، الجزء الأول، ترجمة ذ.محمد حجي وذ. محمد الأخضر، الرباط، 1980 ، ص. 76.

36 ــ نفس المصدر والصفحة.

37 ــ ن.م ، ص. 92.

38 ــ نفسه، ص. 111.

39 ــ نفسه، ص. 287.

40 ــ مجهول، "الاستبصار في عجائب الأمصار" ، نشر وتعليق ذ. سعد زغلول عبد الحميد، البيضاء، 1985 ص.193.

41 ــ عبد الحق البادسي، م.س. ص. 59.

حول الجلموس كغطاء للرأس يمكن الرجوع إلى معلمة المغرب ، المجلد II ، ص. 226.

Emile LAOUST , op. cit. , p.130.

42 ــ الوزان، م.س. ، ص ص . 252 و259.

43 ــ نفسه، ص. 197.

44 ــ حــول إشكالية هذه المصادر يمكن الرجوع إلى مقالتنا عن تاريخ الزي في العصر الوسيط، مجلة أمل: التاريخ – الثقافة – المجتمع، ع. 22 – 23.

45 ــ حــول زي أهل الأندلس وعلاقتهم بالعمائم يحسن الرجوع إلى : – أحمد المقري، "نفح الطيب" المجلد الأول، تحقيق ذ. إحسان عباس، بيروت، 1968 ، ص. 222.

– ابن الخطيب، "الإحاطة في أخبار غرناطة"، المجلد الأول، تحقيق ذ. محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973 ، ص. 136.

46 ــ عــبد الواحد المراكشي، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" ، بيروت، 1998 ، ص.217. يظهر ان لفظة الكلوتة ذات أصل لاتيني وأن القلنسوة أخذت من ( Calautica أو Calantica ) في الفرنسية (Calotte). أنظر كتاب بندلي الجوزي "دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب"، دار الطليعة، بيروت، 1977 ، ص. 312.

47 ــ المراكشي، "المعجب" ، ص. 217.

48 ــ الوزان، م.س. ، ص.220.

49 ــ ابن الحاج، "المدخل إلى تنمية الأعمال..." ، الجزء الأول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت. ص. 142.

50 ــ نفسه، ن.ص.

51 ــ المقري، م.س. ، المجلد الخامس، ص.184.

52 ــ المراكشي، "المعجب..." م.س. ص. 200.

53 ــ ابن زيدان، "إتحاف أعلام الناس، الجزء الأول، الرباط، 1990 ، ص. 390.

54 ــ عبد الله حمودي، "الشيخ والمريد"، دار توبقال 2000 ، ص.88.

55 ــ الإدريسي، م.س. ، ص. 74.

56 – حركات، م.س. ، ص.20.

57 – ابن حوقل، "صورة الأرض" ، بيروت، 1979 ، ص.99.

58 – البكري، م.س. ، ص170.

59 – الفـــرق بـــين الاثنين أورده غير واحد من اللغويين، فالنقاب إذا نزل دون العينين إلى المحجر، أما إذا كان على الفم فهو لثام. ابن سيد، المخصص، م.س. ، ص.39.

60 – الوزان، م.س. ، ص ص.47 و48. وما زال الطوارق في الصحراء يتلثمون إلى يومنا هذا.

61 – ابن الأثير، "الكامل في التاريخ"، الجزء الثامن، بيروت، 1980 ، ص.76.

- مجهول، "الحلل الموشية"، تحقيق ذ. سهيل زكار وذ. زمامة، البيضاء، 1979، ص.18 – 19.
- الناصري، "الاستقصا، الجزء II ، ص.4.
- حسن إبراهيم حسن، "تاريخ الإسلام"، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، القاهرة، 1967، ص. 115.

62 – ابن حوقل، م.س.، ص.99.

63 – البكري، م.س. ، ص. 170.

64 – النويري من كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب"، تحقيق ذ. أبو ضيف أحمد، البيضاء، 1985 ، ص.384.

65 – نفسه.

66 – الوزان، م.س. ، ص ص.48 و49.

67 – الحسن الوزان، "وصف إفريقيا"، الجزء الثاني، ص.162.

68 – Ibn Battuta, "Voyages " T. III, traduction de l'Arabe de C. De fremery et B.R Sanguinetté, Paris, 1990, p.404.

69 – محمد عابد الجابري، "فكر ابن خلدون: العصبية والدولة"، البيضاء، 1978 ، ص. 239.

70 – ابن الأثير، م.س. ، ص. 76. – النويري، م.س. ، ص. 383.

جان بول رو، "الإسلام في الغرب"، تعريب هـــ. نجدة وسد. الفز، بيروت، 1960، ص. 190.

71 – ذ. إبراهيم القادري بوتشيش،"المغرب والأندلس" ، ص.77 و79.

72 – تاريخ ابن خلدون، ج.6 ، ص. 181.

73 – ابن الأثير، م.س. ، ص. 76.

74 – A. LAROUI, « l"histoire du Maghreb", T. I , Paris, 1975 , p. 155.

75 – الونشريسي، "المعيار المعرب..." الجزء الأول، نشر وزارة الأوقاف، 1401 – 1981 ، ص. 225.

76 – البيدق، م.س. ، ص. 27. ابن القطان، م.س.، ص.97.

77 – حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى :

Olivier Burgelin, Barthes et le vêtement " In communication , n° 63, Seuil 1996.